صلاح فضل:

في هذه الليلة، أستشعر سعادة خاصة وبهجة حقيقية، لأن شخصية وموضوع منتدى الحوار كلاهما حبيب إلى قلبي، أثير عندي، لصيق بما أعشقه وأحترفه معا في مجالات الأدب والفن والفكر والثقافة. وأحسب أن ضيف الليلة الأستاذ إدوار الخراط الفنان والمبدع الكبير يستحق منَّا حوارات جادة ومخلصة ولقاءات عديدة، لأنه يمثل إحدى قمم الإبداع الشامخة في فضائنا العربي كله، وأحد القلائل الذين اخترقوا السماوات المحلية والإقليمية وأصبح لهم حضورهم العالمي في الثقافات الأخرى. الأستاذ إدوار الخراط، ابن الإسكندرية وعاشقها الذي حيل بينه وبين أن يتخصص في اللغة العربية في شبابه، فقرر أن ينتقم منها! أن يعيد خلقها، أن يكتبها مرة أخرى، لم يُتح له أن يكون دارسا لها، فعشقها، أوشكت أن أقول اغتصبها! لم يكتب بها النثر فحسب، ولكن ولَّد منها شعرا رائقا جميلا قويا متدفقا انهمر في كتابات عديدة أخفاها زمنًا ثم أخرجها للنور في الأعوام الأخيرة. لا أعرف على أية صورة كانت ستكون علاقته بهذه اللغة، لو احترفها أو لو درَّس بها، أخشى أن تكون حينئذ هي التي تضر بطاقته الإبداعية الكبرى التي تفجرت معها وفيها بعد ذلك.

الأستاذ إدوار الخراط ليس بحاجة إلى تقديم، ولكن الموضوع الذي يقدمه الليلة بحاجة إلى تأمل منكم لكي نحاوره، لأنه يتصل بجماليات المكان، يتصل بالإبداع عندما يسجل روح المدينة وأفقها روائيا على وجه التحديد، أحسب أنه في التقسيم الكلاسيكي القديم كان الشعر يُعتبر فنا زمنيا لأنه يرتبط بالموسيقى، ويعتمد على الإيقاع، وهما قيم زمنية، لكن الرواية في مقابل ذلك، لابد أن تكون فنا مكانيا لأنه يسجل بصمات الروح في المكان، يسجل تاريخ الأشياء والأشخاص والمدن والفضاءات، لأنه يقبض على الزمن فيجمده في بقعة خاصة، يهبه نعمة الخلود، نستطيع أن ننتقل إلى كل الأمكنة، أن نعيش فيها، أن نتنسم عبيرها وعطرها، أن نلمس بشرته عبر الرواية. إلى حد أن استطاعت الرواية التي كُتبت في غير لغة هذا المكان أن تقبض على جوهره، أن تسجل حيواته الكثيرة ورؤاه المختلفة وبشره المتعددين وثقافاته المتناغمة، هذا هو الموضوع الذي يشغل الأستاذ إدوار الخراط فيعرضه علينا هذه الليلة.

أحسب أن من ينظر في أدب إدوار الخراط سيجد إسكندريته الخاصة صورت أكثر من مرة تخللت كل الأماكن وانتشرت عبرها، لكنه لن يتحدث عن إبداعه، لن يكون محدِّقا في قاع ذاته مثل مبدع آخر جُنَّ بالإسكندرية فجعلها موضوعا لإبداعه السينمائي هو المخرج يوسف شاهين، إلا أن الأستاذ إدوار الخراط كان أعقل من الأستاذ يوسف شاهين كثيرا في جنونه بالإسكندرية لأنها لم تُمْحَ من ذاكرته ولم تمنع قلمه من أن يعانق غيرها من الأمكنة والفضاءات، تُرى ماذا أعد لنا إدوار الخراط عن رؤى الإسكندرية في الرواية العالمية؟

إدوار الخراط:

للإسكندرية سحر لا يُضاهى، يوشك أن يكون أسطوريا لا تفسير له. فللكثير من المدن تاريخٌ عريق، أو جمال جغرافي أخاذ، أو تراث ثقافي غنيّ، ولكن ما من مدينة تأسر عشاقها وأهلها كما تأسرهم الإسكندرية المصرية.

الإسكندرية، شأن كل الثقافة التي تنتمي إليها، مدينة ترسي جذورها في إرثٍ متعدد المستويات، هي مدينة، وثقافة، تنبض بحياة معاصرة وحديثة ودائمة التجدد، وهي في الآن ذاته مستودع ثقافات عريقة ووسيطية وحديثة أيضا يمتزج فيها التنوع بالكل المتسق، وهي مع ذلك لم تكن قط ولن تكون على أرجح الظن أبدا، مجرد كتلة أحادية القوام أحادية النغم.

أوقن أن الإسكندرية هنا تمثل مصر كلها، تتميز بالتنوع الذي يكوِّن تناسقا، إنها غنية بتراث ثقافي لم يعف عليه الزمن ولا هو مجرد ظاهرة تاريخية، بل هو تراث مازال يملك طاقة فعالة.

ليست الإسكندرية، ولا الثقافة التي تمثلها، ولا الأدب الذي غذته مجرد إرثٍ للأمجاد الثقافية اليونانية، فقط، سواء كانت فلسفية أو علمية أو أدبية سواء كانت هلينية أم بيزنطية، بل هي أيضا وريثة كنوز روحية عريقة، وريثة الأسر الثقافية للحقبة الفرعونية التي تضرب بعيدا في عمق الدهور، وقد أضحت الآن مرتبطة ارتباطا لا ينفصم بالثقافة الإسلامية العربية. كما أضحت مرتبطة ارتباطا لا ينفصم أيضا بالمعاصرة، على المستوى التاريخي، وعلى المستوى الثقافي والأدبي. كتب الشعراء والكُتاب والسكندريون القدامى والمحدثون باليونانية القديمة والحديثة، وبالإيطالية وأساسا بالعربية، كلهم قد أسهموا في أن جعلوا هذه المدينة رمزا ومنارة روحية.

علاقتي بالإسكندرية علاقة خاصة، فقد كانت الإسكندرية – وما زالت – موقعا حُلميا، على كل واقعيتها. هي ليست موقعا جغرافيا جميلا فقط، وليست – فقط- ساحة لالتقاء واصطدام الناس الذين يعملون ويحبون ويموتون على أرض الحياة اليومية، وليست – فقط – مستودع ترسب ثقافات وحضارات تاريخية، عريقة وراهنة، هي ذلك كله. وهي كذلك حالة من حالات الروح ومغامرة سعي لاستيعاب حقيقة داخلية. وهي مواجهة ميتافيزيقية أيضا لغموض المطلق والموت الممتد على صفحة بحر ساجية أو جياشة، نحو أفق ملتبس، بلا حد.

ولعلني لا أعرف كاتبا آخر في العربية توله بعشق هذا الموقع – الحلم – الواقع، كما فعلت. لكأنها امرأة فردانية ومتكثرة بلا نهاية. ومهما كان من حفاوة كاتب مثل نجيب محفوظ بأزقة وحواري الجمالية، أو كاتب مثل عبد الرحمن الشرقاوي، وغيره من كتاب الريف، بقراهم، فقد كانت المدينة والأرض عندهم في نهاية الأمر ديكورا خلفيا، وفي أحسن الأحوال موضوعا أو ساحة للفعل الروائي. الإسكندرية عندي هي نفسها الفعل الروائي بمعنى أنها قوة فاعلة، وليست مادة للعمل ولا مكانا له. إسكندريتي، مدينتي التي أعرفها وأصونها في عمق قلبي وأعشقها حتى التدله، والتي ترابها زعفران، حلم وتراث عريق وساحة للحب، ومساءلة للمجهول في وقت معا.

أما لورانس داريل فلم يعرف الإسكندرية، في تقديري، مع أنه كتب مئات الصفحات من رباعيته الشهيرة، فالإسكندرية عنده أساسًا وهم غرائبي، كأنما كتب لكي يرضي نزعة عند الكاتب وعند قرائه الغربيين، سواء في اختلاق وابتعاث خرافة راسخة الجذور عن "الشرق" الذي يموج ويصطخب بشخوص عجيبة، غير مفهومة، تتقلب بين العنف تارة وبين الخنوع والذلة تارة، ولا تكاد تنتمي إلى البشر أيا كانت جنسياتهم وبيئاتهم وثقافاتهم. وتحتشد هذه الخرافة الغرائبية بأجواء خارقة، بجهد الكاتب في أن يضفي عليها جاذبية غير المألوف، يجهد إلى درجة منفرة ومقززة أحيانا. فهي جاذبية الخيال المغرق، والجمال المصنوع، والقبح النادر أيضا.

الإسكندرية عند داريل هي أسطورته الشخصية أولا وأخيرا، أسطورة تكونت من مشاهد خارجية التقطتها عين أجنبية، ومشاهد داخلية تخلقت في نفس منفصلة محجوزة عن قلب البلد وروحها بانحيازات رازحة وراسخة. لم يعرف داريل من الإسكندرية إلا قشرتها السطحية: بيوت ومكاتب الدبلوماسيين، الفئة الفوقية التي تطفو كالزبد أو الرغوة على عباب مدينة تمور بالحياة، الشوارع والبيوت التي كانت محرمة على أهل البلد، و"المتمصرين" الذين لم يعرفوا من مصر إلا كيف يستغلونها، ثم من يدور في ذلك هؤلاء الخدم والبغايا الذين لا يراهم داريل إلا من الخارج، دون مبالاة، وبشيء قليل من النفور.

أما الإسكندرية الحقيقية التي يسميها باستعلاء متوقع ومنتظر: "البلدة العربية" أو بعبارة أدق بالعامية المصرية "الحتة البلدي" فهي عنده مشاهد شرقية تلوح باذخة الزينة وغريبة الوقع، لا صلة لها بالواقع. من الأمثلة الصارخة على ذلك والتي تحضرني، فالرباعية حاشدة بأمثال ذلك المشهد الذي نرى فيه "الدرويش" يرقص في مولد ست دميانة القبطية، وقد تحول إلى شمعدان آدمي، مغطى بالشموع الموقدة، وقطرات الشمع الذائب الساخن تتساقط على جسمه، ويأتي صبي ليدفع "حنجرا هائلا" في كل من خديه، وعلى طرفي الخنجر اللذين يبرزان من جانبي وجهه يضع الصبي شمعدانا آخر على الجانبين، وفيه الشموع المشتعلة. (ماونت أوليف ص ١٢١)، "أسير في الحي البلدي الصاخب بأنواره التي تشبه الطعنات ورائحته التي تنهك اللحم. (چوستين ص ١٨٥). وهو يحكي عن سيدة قبطية جليلة – لابد – حسب تقاليد الكتابة الاستشراقية – أن تكون قد وقعت في غرام ضابط إنجليزي يجيد العربية ويحظى بإعجاب الصحافة العربية! "وهي قد خلعت "الحجاب" وعادت الآن ترتديه، وهي تربي ثعبانا في البيت وتغذيه باللبن كل يوم، وإلا ساء مزاجه! وبعد مرضها لم تعد تسمح بوجود مرايا في "الحريم" (بلتازار ص ٧٩). أما نسيم وناروز وهما من أصحاب الأملاك الأقباط ابنا هذه السيدة – واسمها ليلى – فهما مرسومان طبقا للوصفة الاستشراقية المألوفة في الأدب الكولنيالي، وخاصة ناروز "مشقوق الشفة" ضخم الجسم عنيف وخانع في نفس الوقت.

"في الحي "البلدي" المصري تتغير رائحة اللحم: النشادر وخشب الصندل والبوتاس والبهارات والسمك" (چوستين ص ٦٦). وفي موضع آخر فإن رائحة هذا الحي هي "رائحة المدافن المفتوحة حديثا" (كلِيا ص ٩٧).

وذلك يقابل النشوة اللغوية القوية المحلقة في مقاطع شعرية: "الجاموس المعصوب العينين يدير السواقي في أبدية من الظلام .... جوانب كاملة من السماء والأرض تتزحزح وتنفتح كغطاء أو تنقلب رأسا على عقب. قطعان

الغنم تدخل وتخرج من هذه المرايا المعوجة، تظهر وتختفي، تحفزها صيحات الرعاة غير المرئيين مرتعشة فيها خنة. فيض دافق من صور رعوية من التاريخ المنسيّ ما زالت تعيش جنبا إلى جنب مع تلك التي ورثناها. سحب النمل ذي الأجنحة الفضية صاعدة تلتقي بوهج نور الشمس .. صمت الركود الكامل، ولكن ريف مصر كله يقاسمه ذلك الشعور الكئيب بالهجران، بأنه قد تُرك لكي يتردى ويذبل يصطلي ويتشقق ويتفتت تحت الشمس المتقدة..

"وسمعت صوت المؤذن، حلوا من الجامع يتلو "العبادات" (التي يسميها داريل "عبيد" – فهو لا يعني كثيرا بأن يدقق كلماته العربية، أتصور أن ما يهمه هنا هو مجرد إيقاعها الغريب) صوت معلق كأنه شعرة في الأهوية العلوية التي ابتردت من النخيل في الإسكندرية (!!)." (...) " سماء من المخمل المرتعش النابض، يقطعها الاشتعال العاري من ألف مصباح كهربي. كان الليل يمتد فوق شارع التتويج مثل قشرة من القطيفة. لم تكن هناك إلا أطراف المآذن المضاءة، ترتفع فوقه بسيقانها الرشيقة غير المرئية – تبدو أطرافها معلقة في السماء، ترتعد ارتعادا هينا بالوهج كأنما على وشك أن تبسط قبازعها مثل ثعابين الكوبرا" (كلِيا ص ٢٩٥).

وهكذا، إلى ما لا نهاية له من الشعر المبطن بالغرائبية، والمنطوي أساسا على الرفض والتبعيد والانفصال والتعالي. انظر مثلا إشارته إلى حميد، الخادم المصري الذي يفرش سجاد الصلاة في شرفة المطبخ، والذي يقول عنه أنه "يركبه الجن" إلا أنه لا يفتأ يكرر باستمرار "دستور .. دستور" إذ يصب المخلفات في حوض المطبخ، "لأنه هناك يسكن جنيّ قوي لابد من التماس عفوه وسماحته". والجن يقطن الحمام كذلك، وكان حميد يستخدم المرحاض الخارجي، يستصرخ الجن كلما جلس عليه: بالإذن ... يا مباركين!" وإلا سحبه الجن إلى مواسير المجاري. وكان يتحرك، في نعله القديم "مثل ثعبان البوا القابض يتمتم بخفوت" (چوستين ص ٨٧).

وهكذا، ينـــتقل داريل من سخرية الاستهانة إلى التشويه الصريح: "الإسكندرية التي تبدو من الظاهر مسالمة إلى ذلك الحد، لم تكن في الواقع آمنة بالنسبة للمسيحيين" ثم يحكي حكاية مروعة عن رأس زوجة نائب القنصل السويدي التي تدحرج رأسها من حجر بدوية في طريق مطروج" (ويقصد مطروح – بالحاء وليس بالجيم، فيما أظن!).

الإسكندرية التي عشت فيها وعاشت فيها عائلتي وعائلات أقربائي وجيراني وأهل "ملتي" مكان غير آمن لنا! هو يقصد طبعا "المسيحيين" الأجانب، هم أيضا عاشوا بأمان وبهنية من العيش. هذا التجني الغرائبي المبطن بسحر الشعر المصنوع يتحول أحيانا إلى فضيحة حقيقية عندما يصف مشهد وقاع صريح بين اثنين من أهل البلد، بغيّ وصاحبها، كأنما يجري عليهما – كما يقول – اختبارا معمليا، كأنهما من نماذج حيوانات التجارب، في أثناء عملية الممارسة الجنسية (چوستين ص ١٨٧ وما بعدها) أو عندما يصف حيا للبغايا – ليس له وجود، كما اعترف بعد ذلك في حديث صحفي – وليس له حتى مصداقية الشعر المصنوع (ص ١٨٩). وهو يصف الإسكندرية على النحو التالي: ".... مرآة حجر القمر في بحيرة مريوط، وأبدياتها المتصلة من الصحراء المشعثة – تهف عليها رياح الربيع بخفة فتحيلها إلى كثبان من الساتان لا نسق لها، وجميلة كمشاهد

السحاب – ومازالت الطوائف تعيش وتتواصل، الترك مع اليهود، العرب مع القبط، والشوام مع الأرمن، والطلاينة مع اليونانيين. ارتعادات الصفقات النقدية تترقرق بينهم كالريح في حقل من القمح، الاحتفالات والزيجات والمواثيق تصلهم وتفرق بينهم، حتى أسماء المحطات على طرق الترام القديمة ووهداتها الرملية من القضبان ترجع الأصداء غير المنسية، لمؤسسيها، وأسماء القباطنة الموتى الذين رسوا هنا أول ما حط بهم الرحال: من الإسكندر إلى عمرو، مؤسسي هذه الفوضى من اللحم والحمى، من حب المال إلى الصوفية. أين تجد مثل هذا المزيج في أي مكان آخر" (بلتازار ص ١٥١).

ولننظر كيف يقسم المصريين: "عربا وقبطا" وكيف يساوي بينهم وبين الأتراك والطلاينة! ولكنهم ليسوا عنده "مصريين". لقد أبدع داريل رواية رائعة – ومروعة – وحاشدة بالتبصر العميق لنفسيات أبطاله وبطلاته، ولكن "الإسكندرية" التي اتخذ منها عنوانا لرباعيته ليست إلا إسكندريته الشخصية: إسكندرية شاعر من أبرع صناع اللغة، ولكنه إنجليزي غريب وأجنبي تماما عن إسكندريتي التي ولدت وعشت بها زهرة أيامي، وعشقتها وتغنيت بها، ولكني عرفتها، فيما أحس، وعرفت حقا ناسها وأهلها، هم ناسي وأهلي، يكدون ويحبون ويشقون ويموتون ويعملون ويحيون حياة كل يوم، وفي الوقت نفسه هم – بكدحهم اليومي – شعراؤها حقا.

كاتب آخر يتابع التقاليد الاستشراقية نفسها، يكتب عن إسكندرية يمكن أن تحل محلها أية مدينة شرقية أو على الأصح استشراقية مصنوعة على النمط الغرائبي نفسه، فلتكن بومباي أو مومباسا، هو لسلي كروكسفورد Leslie Croxford كتب رواية بعنوان "حماقة سولومون" Solomon's Folly. ليس ثمة حماقة أكبر من تلك الصور الشائهة التي يرسمها هذا الكروكسفورد: الأوروبيون يهاجَمون ويُقتلون من غير ذريعة ولا سبب، سيدة أرمنية تُحطِّم نظارتها فوق وجهها، "هؤلاء العرب يبدو أنهم لا يحسون على الإطلاق بمدى الآلام التي يسببونها" ، "دخل "لي جران" (بطل الرواية) متاهة من الشوارع المعتمة وتزاحم الناس حوله، كانت النساء يصرخن ويولولن من وراء حجاب في النوافذ الضيقة، وكان العرب وقد وضعوا أيديهم مجوفة فوق أفواههم يرفعون وجوههم إلى السماء، يصرخون. كان الرجل في منتصف العمر يرتجف تحت غطاء من جلد الماعز، ثوبه معلق على السرير، أكثر من ستة أقدام طولا، مطرز بخيط ذهبي، وكان ثم كرباج مربوط بنهاية الثوب، بعُقد من الجلد، مزينا بخرز من المينا الزرقاء". وهكذا مما يجري هذا المجرى من التصورات الغرائبية.

يقول كروكسفورد: "كان عرابي وحزبه المسمى الحزب الوطني يحرضون على الإرهاب بمظاهراتهم وخطبهم. لم تعد الملكية الخاصة مقدسة، وكانت الحياة العائلية تنتهك باستمرار، بينما كانت السلامة البدنية للمرء معرضة للخطر مرات لا عداد لها كل يوم".

على عكس ذلك كله، لحسن الحظ، نجد كاتبا عاشقا لمصر، هو في الأصل مصري الهوى يكتب بالفرنسية، روبير سوليه في مجمل كتاباته، وعلى الأخص في روايته الممتازة "سيمافور الإسكندرية" وهو اسم

صحيفة تصدر في الإسكندرية ساطعة الصحو، رقيقة وعذبة، ولكنه مع ذلك يحس نفسه "ليس مصريا حقيقيا" كأنما يعالج حسرة معينة من جراء ذلك، كأنما كانت أمنيته ألا يكون "خواجة" من عائلة شوام، مع أن عائلته كانت قد استقرت في مصر منذ أكثر من مائة عام. "كان المرء يرى بضع فيلات بألوانها الصارخة، تحيط بها أشجار النخيل الباسقة التي تنوس تحت نسمات البحر . وعندئذ رأيت البحر، أزرق وأخضر، وعندئذ انقطعت أنفاسي مبهورا. صحبني البدوي مع اثنين من عائلته حتى الـــقيلا، أكدت لهم أنني لم أعد بحاجة إلى شيء، ومنحتهم المبلغ النقدي الصغير المتفق عليه، ومع ذلك فقد عادوا، بعد ساعة، ليمنحوني كمية من التمر والتين الشوكي". روبير سوليه يكتب عن الإسكندرية، وعن مصر، بحب وإعزاز وتقدير واحترام معا، مما يندر بالفعل أن نجده عند كُتَّاب آخرين ممن لم يعرفوا عن الإسكندرية إلا أوهامهم المسبقة الغرائبية.

ومع ذلك، مازالت الإسكندرية تلهم كتابها وعشاقها بسحرها الأسطوري الذي لا ينفد ولا يمكن أن يفسَّر.

صلاح فضل:

هذه القطع الفنية التي عرضها وحللها وتحدث عبرها الأستاذ إدوار الخراط من بعض النماذج الإبداعية التي دارت حول الإسكندرية تفتح بابا للتأمل وآخر للحوار، تُرى في كلتا الحالتين، حالة المتباعد الذي لا يعرف كيف يمتزج بروح المكان ويظل غريبا عنه نافرا إلى حد ما منه، وحالة المحب الآخر الذي يلتقط شيئا من التعاطف معه، ما مصدرهما؟ ما السبب فيهما؟ وليسمح لي الأستاذ إدوار الخراط أن أبادر بطرح بعض الأسئلة عليه فتحا لباب الحوار، وأتساءل إلى أي حد نستطيع أن ننتظر من أجنبي مقيم بيننا لا يعرف لغة القوم ولا يفهم عنهم ولا يتواصل معهم أن يكون ممتزجا بهم قادرا على التقاط إشاراتهم وفهم حياتهم بتعاطف عميق، ألا تعد اللغة – عندما يكون للأرض لغتها ويجهلها من يقيم على هذه الأرض – هي الحاجز النفسي والوجداني والثقافي بل والروحي الحقيقي الذي يمنعه من التواصل معها؟ أذكر حالة مشابهة قرأتها وكتبت عنها منذ فترة وهي حالة المرحوم الأستاذ إدوارد سعيد الذي كان يقيم في القاهرة وتربى في مدارسها في الثلاثينيات والأربعينيات، لكن أسرته حرمته من الاختلاط بالمدارس المصرية وألحقته بمدارس الجاليات الأجنبية، فشب يقول عن القاهرة – رغم انتمائه العربي وأصله الفلسطيني – أنها كانت في هذين العقدين عاصمة مهجورة لا ثقافة لها ولا فكر فيها ولا عقل لها، بينما هذان العقدان منذ الثلاثينيات والأربعينيات كانت القاهرة تعج بمختلف صنوف الفكر والثقافة والإبداع، كان حاجز اللغة – وليس حاجز الانتماء الوطني ولا القومي – هو الذي كان يقوم دون ذلك، فإلى أي حد في حالة داريل كانت اللغة هي هذا الحاجز الذي منعه من التعاطف؟

السؤال الثاني: كونك في معرِض الهجاء له أو النقض تقول إنه يتبنى نظرة استشراقية، ألم يكن هو كذلك غربيا يقيم في بلد شرقي، الطبيعي فيه أن يكون ممثلا لهذه الروح الاستشراقية، والاستشراقية نأخذها على

أبناء وطننا وجلدتنا ولغتنا وثقافتنا عندما يتعالَون على أهليهم نقول أنهم يتبنون نظرة استشراقية، لكن داريل كان مستشرقا، فهل يُعاب عليه أن يتبنى هذه النظرة الاستشراقية؟ هل تُعد تهمة له وهي تصفه؟

السؤال الثالث: هذه المشاهد المؤلمة والجارحة والتي انتقاها الأستاذ إدوار الخراط وهو يعرف بحسه الفني العميق أن عملا ضخما مثل الرباعية يحوي آلاف المشاهد الأخرى، ألم تكن هناك مشاهد أكثر تعاطفا وتحنانا ورقة ورؤية لجمال المكان حتى تعادل هذه اللحظات؟ ألا يُعد انتقاء مشاهد جارحة من عمل واسع عريض والتدليل بها على روح هذا العمل اختزالا له وإهمالا لما يكون قد وازنها من مشاهد أخرى؟ مجرد أسئلة يسيرة لا أستطيع أن أخفي بها إعجابي بالإيجاز والدقة والإصابة التي ميزت حديث الأستاذ إدوار الخراط وأنا مفتون به حتى وأنا أحاول نقده وأحاول محاورته.

سعيد حسن:

ما هي قائمة المؤلفات التي كتبها الأستاذ إدوار الخراط؟ ولماذا لم تُنشر في وسائل الإعلام والسينما مثل نجيب محفوظ ويحيى حقي وتوفيق الحكيم وطه حسين؟

بالنسبة إلى نقد لورانس داريل، وعدم حبه وعشقه للإسكندرية خاصة والشرق عامة، لي بعض الملاحظات التاريخية، فبالنسبة للدكتور سلامة موسى في نقده للحضارة العربية والإسلامية وقال صراحة "نحن لابد أن ننتمي إلى الحضارة الأوروبية الأنجلو ساكسونية خاصة وليس الجرمانية"، بالنسبة للدكتور لويس عوض والدكتور فرج فودة المتهجمين تاريخيا على اللغة العربية والحضارة العربية وكان من أمرهما ما كان.

ولذلك، كنت أتمنى أن تلقى الأضواء وليس ضوءا واحدا على عاشق للحضارة العربية والإسلامية وغيرها من الحضارات وهو الدكتور زكي مبارك ونقده اللاذع للدكتور طه حسين ولباقي المستغربين الآخرين زملائه. إلا أنني أطمئنكم تاريخيا على أن الشاعر اليوناني كاليماخوس عاشق الإسكندرية، وكذلك روبير سوليه الفرنسي، وإدوار سعيد بعد هجرته إلى الولايات المتحدة الأمريكية ووفاته العام الماضي، وقد كان شديد النُصرة للحضارة العربية التي عاش بها. وهناك شهادة من بعض الكُتاب العالميين وعلى رأسهم برنارد شو الإنجليزي ولوي تولستوي الروسي وروجيه جارودي الفرنسي بالحضارة العربية والإسلامية.

محمد يوسف:

كنت قد تعرفت على كتابات الأستاذ والأديب الكبير إدوار الخراط عن طريق القصص التي كانت تنشرها له مجلة العربي الكويتية، وكنت وقتذاك في المرحلة الثانوية، مما يجعلنا نتساءل لماذا نشعر بشيء من التقصير تجاه حق الأديب الكبير كما ذكر الأستاذ سعيد حسن؟

على مدى التاريخ الطويل لمدينة الإسكندرية والذي يربو على ألفين وثلاثمائة وخمس وثلاثين عاما أو يزيد ببضع سنوات، لابد أن هناك من القُدامى من تأثر بها أو حكى عنها أو أشاد بها غير هؤلاء المتأخرين الذين ربما عاصروا الحملة البريطانية والاحتلال الإنجليزي سواء داريل أو كروكسفورد أو سوليه، ومن المؤكد أن هناك

إصدارات حديثة أخرى، وربما أن هناك إصدارات أقدم من هؤلاء ربما تعود إلى زمن الحروب الصليبية، حيث أرسل بعض الأسرى الذين أتوا مع هذه الحملات وعاشوا في الإسكندرية برسائل إلى ذويهم يصفون حال مصر ومن بينها الإسكندرية، ولابد أن هناك إشارات مضيئة عن المعاملات التي كانوا يتعاملون بها بصورة طيبة في هذا البلد.

السيد سليمان:

للإسكندرية خاصية غريبة، وقد وقعت في يدي وثائق لوزارة الخارجية الروسية في عهد القيصر – وهي موجودة في إحدى المكتبات ولا داعي لذكر اسم المكتبة – وهي عبارة عن إهداء يذكر أن الإسكندرية كان بها نوع من الأممية الغريبة، وظهرت بها الشيوعية قبل أن تظهر في روسيا، و لم تكن البرافدا تظهر في روسيا قبل أن تمر على الإسكندرية، وكانت الحركة الأممية الأولى تنشأ في الإسكندرية نظرا للكم الرهيب من العمالة التي نمت في عهد إسماعيل وما قبل إسماعيل، والإسكندرية لها طابع أممي وليس لها طابع محلي، ونحن نعيش في الإطار الأوروبي وكأننا في مدينة إيطالية، والمدن أنواع، ونحن في مدينة لم تصل إليها العشوائية إلا حديثا، فهي مدينة مخططة تخطيطًا صارمًا، وهي مدينة حضارية منذ مسافة بعيدة، هذا الشعور الذي نعيشه الآن لابد أن يعيشه الأجنبي، فالإسكندرية صياغة أوروبية من فترة تزيد عن مائتي سنة، وكانت قد هُجرت لفترة ثم أعاد محمد علي باشا لها أهميتها، وقد ذكر الأستاذ إدوار الخراط مثالا لكاتب إنجليزي و لم يذكر مثالا لكاتب إيطالي! والإنجليز كانت لهم رؤية معينة، رؤية استشراقية عدائية، وقد حضرت محاضرة في الإبداع لكاتب إيطالي كنا نكرمه في مركز الإبداع، وكان يتكلم عن تجربة الإيطاليين الذين كانوا هاربين من موسوليني، وعندما سقط موسوليني عادوا إلى إيطاليا، وكان الرجل يتكلم بمنتهى الحب، وأقام عملا جميلا جدا عن الإسكندرية، وكنت معجبا للغاية بروحه المنفتحة، ولا أعرف لماذا شعرت من حديث الأستاذ إدوار الخراط أن هناك مقارنة بين نظرتين للإسكندرية كلتاهما من خارج مصر، وكان من الممكن أن يتوسع في الحديث طارحا وجهة نظر الكتاب المصريين الذين رأوا الإسكندرية بعيونهم مثل نجيب محفوظ مثلا الذي رأى الإسكندرية بعيون روايته "ميرامار" وغيرها، في حين أن الأستاذ إدوار الخراط تحدث عن الإسكندرية كشخصية محورية تلغي الأبطال والأحداث، في حين أن المكان تدور حوله وفيه الأحداث، والسؤال هنا هو كيف تكون المدينة هي البطل وهي الأحداث؟

عادل أبو الخير:

نقد الأستاذ إدوار الخراط في كلامه رباعية الإسكندرية التي كتبها لورانس داريل وبيـــّن فيها أوجه القصور، وقد كنت أريد أن أضع وجهة نظر هذا الكاتب الإنجليزي الذي كتب هذا الكلام حينما كانت مصر ترزح تحت نير الاحتلال الإنجليزي وكان لابد له أن يكون خادما للإمبراطورية البريطانية في إثبات وجودها في هذا البلد الذي اعتبره متخلفا، وكانت الإسكندرية مدينة كوزموبوليتانية، بمعنى أنها كانت تجمع بين الحضارات

المختلفة الموجودة في العالم على مدى أكثر من ألفي عام، وكانت رائدة الحضارة في العالم على مدى حوالي ألف عام، أي عشرة قرون من عمر الزمان، وهو سبق لم تحزه أي مدينة أخرى في العالم حتى الآن. فلورانس داريل كان بوقا للإمبراطورية البريطانية في ذلك الوقت، و لم يشاهد الوجه الحَسَن لهذه المدينة الكريمة التي رحبت بمختلف أجناس وشعوب الدول المختلفة في أرجائها وحازت على تقديرهم دائما وأبدا ومازالوا يحفظون لها أكبر الأثر في حياتهم ويتذكرونها بالخير.

إدوار الخراط:

يعود اهتمامي بلورانس داريل أصلا إلى شهرته الواسعة، فقد عرفت من الكُتَّاب ومن القراء المتابعين من يشيدون بل من يرفعون من شأن رباعيته إلى عنان السماء ! لهذا أشرت إلى أوجه النقص والقصور والغربة والابتعاد عما أسميه "روح الإسكندرية". وقد كان لورانس داريل يعمل في الاستخبارات، فكان من الطبيعي أن يكتب بهذا الأسلوب، إلا أن كثيرا من القراء يذكرون كتاباته بكثير من الاحترام والتبجيل والتقدير، كما لو أنها تحفة لا مثيل لها! هي بالطبع تحفة وساحرة من وجهة النظر الفنية وأيضا من وجهة النظر اللغوية التي جعلت من عباراتها أشبه بصناعة جواهرجي، لكنها مع ذلك تحفة مصنوعة وسحر مفبرك وبريق زائف! أما عن كونه أجنبيا ومقيما وبينه وبين أهل البلد حاجز اللغة، فكل هذه أسباب طبيعية وواضحة وأدت به في النهاية إلى أنه لا يعرف الإسكندرية، فقد كان يمثل قوة احتلال أجنبية مسيطرة على مصائر البلاد، على الرغم من ذلك، فلا يُعاب عليه ما كتب لأن هذا رأيه ورؤيته ونظرته الشخصية، إلا أن شهرته التي صنعها الناس وقولهم عن إشادته بالإسكندرية تستحق نظرة نقدية متفحصة. ولا أستطيع أن أنكر أن الرباعية تحتوي على مشاهد جميلة أيضا، إلا أن هذا الشعر الغرائبي الذي عُرِض هنا جزءٌ من ترجمته يبدو محلقا وغارقا في نوع من التهويم إلا أنه زائف ومصنوع، فالجمال هنا غريب عن رؤية هذا الكاتب للإسكندرية.

وبخصوص ما ذُكر حول زكي مبارك، فلا أعتقد أن زكي مبارك له أدنى علاقة بالإسكندرية! كما لا أوافق عما ذُكر حول أن الإسكندرية "صياغة أوروبية"، نحن لسنا صياغة أوروبية على الإطلاق، نحن صياغة مصرية إسكندرانية! ولا يمكن أن ننسى تراثنا وثقافتنا وتقاليدنا وبيئتنا، هناك تأثير بالحضارة الأوروبية وهذا طبيعي، فنحن قد تأثرنا بالحضارة الأوروبية وغير الأوروبية.

بخصوص الكتاب الإيطاليين، فأنا شخصيا لا أعرف الإيطالية، إلا أنني قرأت ترجمات لأشعار إيطالية، وعرفت بعض الأعمال الشعرية لجاريتي وماريونيتي وهما من الإسكندرية، وأنا أرى أن الإيطاليين واليونانيين والأرمن الذين عاشوا في الإسكندرية، في الواقع، سكندريين أكثر من كونهم إيطاليين أو يونانيين أو أرمن، وقد امتزجت كتاباتهم امتزاجا تاما ببحر الإسكندرية وهوائها وسمائها.

محمد النجار:

في كل مرة أستمع فيها إلى الأستاذ إدوار الخراط أزداد إعجابا بحديثه ولغته السليمة، وأود أن يكون تعليقي هذا مجرد تعليق على الندوة، وقد تحدث الأستاذ إدوار الخراط عن الرواية التي تناولت مدينة الإسكندرية، وقد فهم البعض مفهوما خاطئا وظن أن الحديث كان عن الإسكندرية عموما، الرواية شيء والحديث عن المدينة شيء كما جاء في أدب الرحلات الذين سبقوا فن الرواية، فإن هناك رحالة كثيرين قد جاءوا إلى مصر وتحدثوا عنها أيام المماليك والحروب الصليبية، هذا شأن وما تحدث عنه الأستاذ إدوار الخراط وهو الرواية شأن وما فهمه البعض من تاريخ المدينة وواقعها شأن ثالث! وقد تحدث الأستاذ إدوار الخراط تحديدا عن الرواية التي تناولت مدينة الإسكندرية، وقد أتى بهذه النماذج لداريل وكروكسفورد وسوليه لطرح رؤى مختلفة لمدينة واحدة، إلا أن بعض ما ذكره بعضهم صحيح بالفعل، فقد كانت والدتي من الإسكندرية، وحدثتني جدتي عن أمر تربية الثعابين في البيوت! فقد استأجر أحد اليهود الطابق الأرضي منها وكان يربي ثعبانين هو وأسرته، فلا غرابة في ذلك أبدا! كذلك مشاهد الدراويش والتي كانت معتادة، إلا أنها لم تكن منتشرة، وأنا أعتقد أن الروائي هنا يمزج بين الإسكندرية ومدنا أخرى كاسطنبول أو مدن الشام.

كذلك أعتقد أن الغرور الاستشراقي هو الذي قاد داريل إلى وجهة النظر هذه، وهم يعتقدون أن ما سواهم متخلف، وهم يسارعون إلى إلقاء النظرات الجزافية، إلا أنني أعتقد أنه قد غلَّف أمره برواية، وما دام قد غلَّف أمره برواية فلا شأن لنا إلا أن ننقده من زاوية الفن الروائي.

متحدث لم يذكر اسمه:

تحدثت جريدة التايمز اللندنية قريبا عن مكتبة الإسكندرية، وتساءلت قائلة إذا كان العالم قد عرف مدينة مفتوحة فلا يوجد في التاريخ الإنساني بأكمله مثال لمدينة مفتوحة غير الإسكندرية، إلا أنه بعد الثورة، اختلفت الأيديولوجية والديموغرافية التي كانت تميز الإسكندرية، فقد دمرت الثورة مكانة الإسكندرية، ورحل الكثير ممن كانوا يقطنون بها من تجار وصناع بمختلف الجنسيات وضاع بريق بورصتها التي اشتهرت بها، وأصبحت الشكل الكامل للمدينة المصرية المحلية وفقدت الكثير من بُعدها العالمي، أما بعد إحياء مكتبة الإسكندرية، فهل من الممكن أن تعود مدينة الإسكندرية كأعظم مثال لمدينة مفتوحة في العالم؟

إدوار الخراط:

إذا كان لورانس داريل حرًّا في أن يكتب ما يشاء ويصوغ رؤيته كيفما يرى، فنحن أيضا أحرار في تقييم عمله ونقده ووضعه في موضعه الذي نراه جديرا به أو ليس جديرا به ! فالمسألة نقد روائي وليس غير ذلك، والرباعية – في تصوري – حشد حاشد من التصورات الغرائبية، تفتقد إلى نوع من التماسك، ودعنا من أن نظرته إلى الإسكندرية وأهلها نظرة أجنبي استشراقي غريب ممثل لقوة احتلال، إلا أنه من الناحية الروائية والفنية البحتة، أعتقد أن الرواية بها قدر كبير للغاية من التشتت والاضطراب، فهي ليست الرواية ولا العمل

الفني المتسق مع ذاته الذي يفرض نفسه على قارئه بقوته الذاتية بقدر ما يثير عند القراء مشاعر التشويق والغرابة إلى آخر ما يجري هذا المجرى الاستشراقي. أما مسألة الرواية العالمية فأنا أضعها موضع سؤال، وأنا أعتقد أن الرواية أو أي عمل فني بلغته، طالما كان عملا فنيا جيدا أو ممتازا فهو عالمي، وليس لأنه يُترجم فهو عالمي، فهذا وهم غير صحيح، وأنا أتصور أن عمل الأستاذ نجيب محفوظ عالمي في لغته الأصلية العربية، فمسألة نسبة العالمية إلى الترجمة نسبة مغلوطة.

إن الإسكندرية مدينة مصرية طوال عمرها، ولم تكن في أي يوم من الأيام مدينة أجنبية، والإسكندرية ليست شارع فؤاد، وإنما الإسكندرية هي كرموز وغيط العنب وبحري والسيالة، فهذه المناطق كانت نواة الإسكندرية، هذه المدينة المصرية التي كانت في وقت من الأوقات مفتوحة وكوزموبوليتانية وهذا من مآثرها، وأنا أتصور أنه بإعادة إحياء مكتبة الإسكندرية، أصبح هناك قدر كبير من الوهج الثقافي والوهج الخاص بالإسكندرية قد عاد ويعود إليها بوجود هذه المكتبة.

صلاح فضل:

وفي النهاية أتساءل، تُرى هل كان إدوار الخراط مبدعا عندما استعرض أعمال المبدعين ونحاها جانبا لأن مشروعه الإبداعي لابد أن يملأ أفقه ويسمو في عينيه ويفيض على غيره؟ أم كان ناقدا أكثر منه عندما نظر إلى هذه الأعمال فاستطاب منها ما راق له ونقد ما لم يرُق له؟ لكن الأدب نقدٌ للحياة، وأحسب أننا كقراء نفيد أكثر من الأعمال التي ننقدها لأننا نتعلم منها ونراها، كما استفدنا في ندوتنا هذه مما سمعناه من الأستاذ إدوار الخراط الذي نشكره، وكذلك مما تبادلناه معكم من الحوار الممتع.